دراسة جديدة للتركيبة الخشبية الخاصة بالإمام الحسين بالقاهرة

دكتور / نادر محمود عبد الدايم *

يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بتركيبة [١] خشبية عثر عليها الراحل الأستاذ / حسن عبد الوهاب في عام ١٩٣٩ أسفل ضريح الإمام الحسين بالقاهرة وهي من خشب الساج الهندي ، وقد نقلت هذه التركيبة إلي متحف الفن الإسلامي [٢] عام ١٩٤٥م لوحة (١) وتتكون هذه التركيبة من ثلاثة جوانب مزخرفة ، أما الجانب الرابع فكان ملاصقاً للجدار ، وكانت هذه التركيبة الخشبية تحيط بأخرى حجرية، وتتكون الجوانب المزخرفة من مجموعة من الحشوات الهندسية الصغيرة ذات الأشكال النجمية والسداسية والثمانية وغيرها ، وقد تم تجميعها داخل إطارات مستطيلة ومربعة شكل (١) ويزخرف هذه الإطارات مجموعة من الأشرطة الكتابية بالخطين الكوفي والنسخي [٣] تضم بعض الآيات القرآنية والنصوص الدعائية والتي تشير كلها إلي نسبتها إلي أحد أفراد البيت النبوي الشريف ، بينما لا يوجد أي نص يفيد تاريخ أو مكان الصناعة أو اسم من صنعت له أو من أمر بصناعتها ، وقد رجح مكتشف هذه التركيبة أن تكون من عصر صلاح الدين الأيوبي بناء علي المقارنة بينها وبين تركيبة أخرى في ضريح الإمام الشافعي تحمل تاريخ (٥٧٤هـ / ١١٧٨ ـ ١١٧٩م) ، كما رجح أن يكون صانع التركيبتين هو شخص واحد وهو ابن معالي الذي ورد اسمه على تركيبة الإمام الشافعي بنص " صنعت عبيد النجار المعروف بابن معالي " [٤] وقد استند في رأيه هذا علي وجود تشابه في الزخارف بين التركيبتين ، وأشار في ذلك إلي وجود اهتمامات لدي صلاح الدين بمشهد الإمام الحسين وأنه أنشأ به مدرسة [٥] وقد اعتمد علي هذا الرأي كل من تناول هذه التركيبة بالدراسة دون إضافة أسباب أخرى لهذا التأريخ [٦] .

---

* مدرس الآثار الإسلامية بكلية الآداب - جامعة جنوب الوادي .

[١] أطلق الكثير من العلماء والباحثين علي هذه التركيبة لفظ تابوت .وهو لفظ يعني لغوياً صندوق من الخشب توضع فيه الجثة ، ولما كانت هذه التركيبة توضع فوق القبر ولا تضم في داخلها أي جثمان فإن لفظ تابوت لا ينطبق عليها ويفضل إطلاق كلمة تركيبة . د. أشرف سيد البخشونجي : كانت للحسين " رضي الله عنه " مذبحة فأين رأسه الشريف ، القاهرة ١٩٩٧ صـ١١٧ حاشية (٢)

[٢] رقم سجل ١٥٠٢٥ .

[٣] عن تفاصيل هذا الاكتشاف ووصف التركيبة ومقاساتها يمكن الرجوع إلي . حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦ من صـ٨٨ – ٩١ .

[٤] المرجع نفسه صـ١٠٨ .

[٥] حسن عبد الوهاب : المرجع السابق صـ٩١ .

[٦] راجع مثلاً : د. زكي محمد حسن : فنون الإسلام . بيروت ١٩٨١ صـ٤٦٢ ـ د. محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ، سلسلة المكتبة الثقافية–القاهرة١٩٦٣ صـ٢٦ ـ د. سعاد ماهر . مساجد =

ويحتاج منا هذا التاريخ إلي مناقشة بعض جوانبه :

أولاً : من حيث صناعة هذه التركيبة خصيصاً لضريح الإمام الحسين ، يلاحظ ملائمتها للتركيبة الحجرية التي وضعت فوقها ، وكذلك زخرفتها من ثلاثة جوانب وإغفال الجانب الرابع الملاصق للجدار ، وهو ما يؤكد أنها صنعت لهذا المكان . من جهة أخرى فإنه رغم عدم تسجيل اسم الإمام الحسين عليها إلا أن الآيات القرآنية الواردة تؤكد أنها صنعت لشخص من آل بيت النبوة ، من ذلك قوله تعالي " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"[٧] وكذلك قوله " رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد " [٨] .

كما وردت آيات كثيرة تشير إلي فضل الشهداء مثل قوله تعالي " إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن" [٩]وكذلك قوله: " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموات بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله " [١٠] وهي تشير إلي سيد الشهداء الإمام الحسين بطبيعة الحال .

ثانياً : من الناحية التاريخية :

اعتمد الأستاذ / حسن عبد الوهاب في تأريخه لهذه التركيبة بالعصر الأيوبي علي وجود اهتمامات لدي صلاح الدين بالمشهد الحسيني وأنه أنشأ به مدرسة [١١]معتمداً في ذلك علي ما أورده أبو المحاسن في كتاب النجوم الزاهرة [١٢] وبالعودة إلي باقي المصادر التاريخية لم أجد في أي من مصادر العصر الأيوبي ما يشير إلي أي أعمال قام بها صلاح الدين في المشهد الحسيني [١٣] وإنما ذكر المقريزي بعد ذلك أنه جعل به حلقة للتدريس وخصص لها

=مصر وأولياؤها الصالحون ، القاهرة١٩٧٣ جـ٢ صـ٣٩٠ . عبد الرؤوف علي يوسف : الخشب والعاج ، ضمن كتاب القاهرة – تاريخها – فنونها وآثارها ، القاهرة ١٩٦٩ صـ٣٦٥ وغيرهم .

[٧] سورة الأحزاب آية ٣٣ . (وقد أول الشيعة هذه الآية بأنها نزلت في أهل البيت من نسل السيدة فاطمة الزهراء . د. محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصري في عصر الأيوبيين والمماليك ، فصله من مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة مج ١٥ مايو ١٩٥٣ جـ١ صـ٧١ .

[٨] سورة هود آية ٧ .

[٩] سورة التوبة آية ١١١ .

[١٠] سورة التوبة آية ٢٠ – ٢١ .

[١١] حسن عبد الوهاب : المرجع السابق صـ٩١ .

[١٢] أبو المحاسن (جمال الدين بن تغري برودي) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – القاهرة – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ جـ٦ . صـ٥٥ .

[١٣] من هؤلاء : أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد) الروضتين في أخبار الدولتين .جـ١ ، مطبعة وادى النيل ، القاهرة ، ١٢٨٨ هـ

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) مفرج الكروب في أخبار دولة بني أيوب. المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧ =

فقهاء [١٤] وهو نص كما نري لا يفيد أبداً قيامه بإنشاء مدرسة وإنما مجرد حلقة للتدريس ، ومن المعروف أن حلقات التدريس في عصر صلاح الدين كانت مخصصة للمذهب الشافعي ولتفنيد المذهب الشيعي ، ويذكر المقريزي أيضاً أن الوزير معين الدين ابن شيخ الشيوخ وزير الصالح نجم الدين أنشأ إيواناً للتدريس وبيوتا للفقهاء بالمشهد [١٥] ومن المعروف أن معين الدين تولي الوزارة للصالح في عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م [١٦]، ولم يذكر أحد أيضاً أنه صنع تركيبة للضريح ومما يؤيد عدم قيام صلاح الدين بأية أعمال إنشائية في المشهد أن ابن حبير الذي زار مصر عام ٥٧٨هـ /١١٨٢م أي في عصر صلاح الدين زار المشهد وأبدي إعجابه الشديد به ـ لم يشر إلي أي أعمال تخص صلاح الدين به مع أنه أشاد بصلاح الدين بشكل كبير[١٧] .

من جانب آخر تجمع المصادر التاريخية التي تناولت فترة نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية علي موقف صلاح الدين المتشدد من الشيعة واضطهاده لهم وتربص كل من الفريقين بالآخر ولم يذكر أي من هذه المصادر أنه هادنهم أو حاول استرضائهم [١٨] ، بل أنه أثناء وزارته للعاضد عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م قام بإبطال شعارات الشيعة وأمر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة والغى لقب أمير المؤمنين من الدعاء للعاضد واستبدله بعبارة " اللهم أصلح عبدك العاضد لدينك " [١٩]، وفي عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م عزل قضاه الشيعة وولي بدلاً منهم قضاه من الشافعية [٢٠] وقام بإلغاء عبارة علي ولي الله من علي السكة الفاطمية [٢١] ، فإذا كان هذا هو موقف صلاح الدين في حياة الخليفة الشيعي ، فهل يمكن أن يحاول بعد ذلك استرضاء الشيعة ، وفي ذلك يقول أبو شامة عند تناوله لوفاة العاضد " تطاول أهل السنة علي الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم وصاروا لا يقدرون علي الظهور "

=ابن شداد (بهاء الدين) سيرة صلاح الدين المعروف باسم . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - القاهرة - مطبعة الأداب ١٣١٧ هـ

[١٤] المقريزي (تقي الذين أحمد بن علي) الموعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار القاهرة – طبعة بولاق .جـ١ صـ٤٢٧ –

(١٥) المرجع نفسه – جـ١ – صـ٤٢٨ .

(١٦) المرجع نفسه جـ٢ صـ ٣٤

(١٧) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) رحلة ابن جبير ، القاهرة ، سلسلة ذاكرة الكتابة ١٩٩٨م صـ٤٣

[١٨] رغم إجماع المسلمين علي إجلال آل البيت ، إلا أن حروب صلاح الدين مع الشيعة وموقفهم منه لم يكن يسمح في ذلك الوقت بأن يقوم بأعمال من شأنها إعلاء شأن الشيعة فى ظل ارتباط المشهد بهم .

[١٩] المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٣ جـ١ صـ١٩٧ .

[٢٠] ابن الأثير (عز الدين أبى الحسن) الكامل في التاريخ – الطبعة الأولي ، القاهرة ، ١٣٠١ هـ جـ١١ ، صـ١٦٤ .

[٢١] د. عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، القاهرة ١٩٩٤ م، صـ٣٩٠

[٢٢] ويصف ابن الأثير وقع إلغاء الخلافة الفاطمية علي الشعب المصري بقوله " ولم تنتطح في ذلك عنزتان " ([٢٣]) أي أن ذلك الحدث لم يؤثر علي الشعب المصري ، وينطبق علي ذلك قول المقريزي يصف حال الشيعة في عصر صلاح الدين : واختفي مذهب الشيعة من الإمامية الإسماعيلية " [٢٤] . ويفهم من هذه العبارة أن الشيعة لم تعد لديهم القدرة علي صناعة أي شئ أو إضافة تركيبة للمشهد أو غير ذلك في العصر الأيوبي .

ويفهم من كل النصوص السابقة أن صلاح الدين لم يتعرض لأية ضغوط يحاول أن يقابلها بإرضاء الشيعة ، حتى أنه منع صلاة الجمعة في الأزهر ونقلها إلي جامع الحاكم بأمر الله [٢٥] وهو أمر شديد الأهمية يدل علي قوة مركزه .

ونعود إلي موقف بقايا الشيعة في مصر من صلاح الدين حيث حاولوا القيام بالكثير من الثورات مثل ثورة عمارة اليمني في عام ٥٦٩هـ /١١٧٣ م [٢٦] وثورة كنز الدولة في أسوان الذي هزم علي يد العادل عام ٥٧٠هـ /١١٧٤م [٢٧] ومحاولة بعض الشيعة إثارة الناس أثناء غياب صلاح الدين في حروبه عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م [٢٨] وغير ذلك . علي جانب آخر كانت أراء المحيطين بصلاح الدين أن الأضرحة التي شيدها الفاطميون لآل البيت إنما هي بدعة لا تجوز في الإسلام [٢٩] من ذلك قول القاضي الفاضل يصفها : " وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم فتعالي الله عن شبه العباد [٣٠] " وإذا كان الأيوبيون قد استخدموا ذلك كناحية سياسية في حربهم ضد الشيعة فإنهم لم يكونوا ليخالفوا ذلك المنهج في بداية دولتهم ويقيموا منشآت أو يضيفوا إضافات في هذه الأضرحة ، وإذا كانوا قد أقلموا ضريحاً للإمام الشافعي فإن ذلك كان نوعا من المنافسة ومحاولة لشد الانتباه عن ضريح الإمام الحسين كما كان نوعاً من إعلان ولاء هذه الأسرة للمذهب الشافعي وتأكيداً لاهتمام صلاح الدين به وإنشائه لمدرسة بجواره [٣١] .

ونجد بداخل ضريح الإمام الشافعي أبياتا من الشعر تحمل معاني هذا الانتماء المذهبي وهي مؤرخة بعام ٦٠٨هـ / ١٢١١ تقول :

---

[٢٢] أبو شامة : المصدر السابق جـ١ صـ١٩٧ .

[٢٣] ابن الأثير : المصدر السابق جـ١١ صـ٣٦٩ .

[٢٤] المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ١ صـ٣٢٠ .

[٢٥] د. أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٩٦٥ جـ١ صـ ٤٢-٤٣ .

[٢٦] ابن الأثير : المصدر السابق جـ١١ صـ ١٧٩

[٢٧] ابن واصل : مفرج الكروب . جـ٢ صـ ١٧

[٢٨] المصدر نفسه جـ ٢ صـ ٢٧٦

[٢٩] د. عبد الناصر محمد حسن : الزخارف علي الفنون التطبيقية والعمائر الأيوبية بالقاهرة – رسالة ماجستير من كلية الآداب بسوهاج – جامعة جنوب الوادي – ١٩٩٥ صـ٤٣ – ٤٤ .

[٣٠] د. محمد كامل حسين : المرجع السابق صـ٤٤ .

[٣١] المقريزي : الخطط . جـ ٢ صـ ٢٣٣

الشافعي إمام النـاس كلهـم في العلم والحلم والعلياء والناس
له الإمامة في الدنيا مسلمـة كما الخلافة في أولاد عبـاس
أصحابه خير أصحاب ومذهبـه خير المذاهب عند الله والنـاس [٣٢]

وتحمل هذه الأبيات معان تؤكد أفضلية مذهب الشافعي علي غيره وأحقية الشافعي بالإمامة وأحقية العباسين بالخلافة ، وهي كلها أمور عكس اتجاه الشيعة.

علي جانب آخر تذكر المصادر المؤرخة لنهاية العصر الفاطمي أن رأس الإمام الحسين نقل إلي القاهرة من عسقلان في عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م . من ذلك ما أورده المقريزي حيث يقول : " وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ورد الخبر أن الفرنج أصروا علي أخذ عسقلان فأمر الخليفة بحمل رأس الحسين إلي القاهرة فأخرج وله رائحة كالمسك ولم يجف دمه ، ثم حمل في عشاري من عشاريات الخدمة فساروا به حتى وضعوه في الكافور فأدخل من السرداب إلي قصر الزمرد ، وكان الإمام الظافر قد بنى المسجد المعروف باسم الفكاهيين [٣٣] ليجعله فيه ، فجمع أهل بيته واستشارهم فأشاروا عليه بأن يجعل الرأس عندهم في القصر ، فدفن عند قبة الديلم ولم يزل كذلك حتى زوال دولتهم " ([٣٤]) .

وهو يضيف في موضع آخر أن نقل الرأس تم علي يد الصالح طلائع ، وأن إنشاء المشهد في الموضع الحالي تم في عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م [٣٥] . ومن المعروف أن الفاطميين كانوا يصنعون تراكيب خشبية لأضرحة آل البيت [٣٦] مثل التركيبة الخشبية التي صنعت عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م لضريح السيدة رقية والتي نشرها Creswell [٣٧]، لذلك فإنه من الطبيعي أن تتم صناعة تركيبة أخرى للمكان الذي تدفن فيه رأس الإمام الحسين تليق به ، خاصة مع ما صاحب نقل الرأس إلي القاهرة من اهتمام شديد وبناء مشهد فخم لذلك ، وإذا كان نقل الرأس قد تم عام ٥٤٨هـ ، وبناء المشهد عام ٥٤٩هـ ، فإن عمل هذه التركيبة لابد أن يكون في فترة قريبة منها .

وإذا كانت مصادر العصر الفاطمي قد أغفلت ذكر صناعة هذه التركيبة فإن الاهتمام كان أكثر ببناء المشهد ، كما أن المصادر الأيوبية لم تذكر صناعة هذه التركيبة أو تركيبة الإمام

---

[٣٢] حسن عبد الوهاب : المرجع السابق صـ١١٢ .

[٣٣] هذا المسجد هو المعروف حاليا باسم الفكهانى فى جنوب القاهرة الفاطمية وقد عرف أيضا باسم الجامع الأفخر ، راجع : حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ٣ صـ٢٠٧ حاشية ٣ .

[٣٥] المقريزي : الخطط جـ١ صـ٤٢٧ .

[٣٦] د. ربيع خليفة : الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي ،القاهرة ١٩٩٢ صـ ٩٦-٩٧

[٣٧] Creswell. K,A, Muslem Architecture of Egypt, vol 1, p 251, pl 88 A. Oxford,1952

الشافعي التي تحمل تاريخها عليها ، وهذا شئ طبيعي فإن البناء من أعمال الخلفاء أو السلاطين ، أما هذه التراكيب فربما صنعها بعض الأفراد ممن لم تذكرهم المصادر .

ثالثاً : من الناحية الفنية :

تتشابه زخارف تركيبة الإمام الحسين إلي حد كبير مع زخارف الأخشاب في نهاية العصر الفاطمي ـ وهي الفترة التي تم فيها نقل رأس الإمام الحسين إلي القاهرة وبناء المشهد ـ وهو ما يؤيد نسبتها إلي نفس الفترة ، كما سنري فيما بعد.

وقبل الدخول في هذه المقارنة نشير إلي أن ما ذكره الأستاذ / حسن عبد الوهاب بخصوص التشابه بينها وبين تركيبة الإمام الشافعي [٣٨]ليس عاماً وإنما هو في بعض العناصر فقط ، وهو ما لا يصلح دليلاً علي صناعتهما في فترة واحدة أو نسبتهما إلي صانع واحد ، بل إن الشواهد التاريخية ترجح أن تكون تركيبة الإمام الشافعي قد صنعت كنوع من المنافسة المذهبية وتقليداً لتركيبة الإمام الحسين ، ومحاولة لتحويل الأنظار عن المشهد نظراً لتعلق الناس به ، وهو ما وصفه ابن جبير حين زار ضريح الإمام الحسين فيقول : " وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسحهم بالكسوة التي عليه وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلي الله تعالي ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجماد " ([٣٩]) ومن الطبيعي أن يكون لهذا الاهتمام الشعبي أثره في محاولة التقليل منه وبيان فضل أئمة السنة وخاصة الإمام الشافعي ، وربما كان هذا هو السبب في إضافة قمة هرمية لتركيبة الإمام الشافعي كنوع من الرمزية ، وإذا كان هناك بعض التشابه في العناصر الزخرفية للتركيبتين فإن ذلك يعد طبيعياً نظراً لقرب الفترة الزمنية بين تاريخ تركيبة الإمام الشافعي ٥٧٤هـ وبين فترة ما بعد بناء المشهد الحسيني ٥٤٩هـ ورغم ذلك فإن هناك الكثير من أوجه الاختلاف بين القطعتين من حيث التصميم العام والزخارف .

أ-من حيث الشكل :

سبقت الإشارة إلي وجود قمة هرمية ([٤٠]) الشكل لتركيبة الإمام الشافعي شكل (٢) لوحة (٢) وهي غير موجودة في تركيبة الإمام الحسين شكل (١) لوحة (١) ، وبالإضافة إلي هذا الاختلاف فإن تصميم الحشوات وطريقة تجميعها تختلف بينهما فنجدها في تركيبة الإمام الحسين عبارة عن حشوات هندسية تم تجميعها داخل إطارات بها كتابات بالخطين الكوفي والنسخي، ويتم تجميع هذه الإطارات لتكون معاً أحد جوانب

---

[٣٨]حسن عبد الوهاب : المرجع السابق صـ٩١ .

([٣٩])ابن جبير : رحلة ابن جبير صـ٤٣ .

([٤٠]) وجدت قمم هرمية لبعض التراكيب الخشبية فى اليمن ، راجع د. ربيع خليفة : المرجع السابق صـ١٠٩ وما بعدها .

التركيبة لوحة (١) ، أما في تركيبة الإمام الشافعي شكل (٢) فإن الحشوات كلها داخل إطار واحد لكل جانب استخدم فيه أيضاً الخطان الكوفي والنسخي .

وإذا عدنا إلي أسلوب استخدام الحشوات المجمعة في زخرفة الأخشاب نجد أن هذ الطريقة عرفت منذ القرن الخامس الهجري ([٤١]) في منبر جامع الخليل (٤٨٤هـ / ١٠٩١م) وفي محراب السيدة نفيسة المحفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ([٤٢]) وفي محراب السيدة رقية (٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦٠م) والمحفوظ بنفس المتحف ([٤٣])لوحة (٣ ـ ٤).

ب-من حيث الزخارف :

قسم العلماء أخشاب العصر الفاطمي من حيث الأساليب الزخرفية إلي ثلاث مراحل ([٤٤]) يهمنا منها المرحلة الثالثة والأخيرة والتي تشمل القرن السادس الهجري والتي تميزت بالعناصر الزخرفية التالية :كيزان الصنوبر ـ ورقة العنب الخماسية ـ الأوراق النباتية التي تضم بداخلها العنب أو الصنوبر ـ قرون الرخا ـ العروق المزدوجة ـ الكأس الثلاثي الذي يشبه الورقة الثلاثية ـ الأرابسك ـ ازدياد التعقيد الهندسي والاتجاه نحو تجميع حشوات صغيرة منفصلة بواسطة ضلوع معشقة ([٤٥]) ، هذا فيما يخص الأساليب الزخرفية ، أما الأسلوب الصناعي فكان بالحفر متعدد المستويات ([٤٦]) .

وتنطبق هذه الصفات علي منتجات تلك الفترة مثل المحرابين الموجودين بمتحف الفن الإسلامي ، وتركيبة السيدة رقية (٥٣٣هـ / ١١٣٨م) لوحة (٥) وبعض الحشوات من جامع الفكهاني (٥٤٣هـ / ١١٤٨م) ومنبر جامع قوص (٥٥٠هـ / ١١٥٥م) لوحة (٦) وبعض الأربطة الخشبية في مسجد الصالح طلائع (٥٥٥هـ /١١٦٠م) ([٤٧]) وباب الصالح طلائع بمتحف الفن الإسلامي ([٤٨]) لوحة (٧) .

وهو ما ينطبق أيضاً علي التركيبة موضوع هذا البحث فيما يلي :

١-من حيث أسلوب التنفيذ نجد في هذه التركيبة استخدام أسلوب الحشوات المجمعة والتي نفذت عليها الزخارف بالحفر البارز متعدد المستويات ، وتتخذ هذه الحشوات أشكالاً هندسية

([٤١])عبد الرؤوف علي يوسف : الخشب والعاج – مقال بكتاب القاهرة تاريخها فنونها وآثارها – القاهرة ١٩٦٩ . صـ٣٦

([٤٢])رقم سجل ٤٢١ .

([٤٣])رقم سجل ٤٤٦ .

([٤٤])د. زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ صـ ٢١٧ وما بعدها .

([٤٥])د. فريد شافعي : مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر ، صـ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ١٦ . جـ١ مايو ١٩٥٤ .

([٤٦])المرجع نفسه صـ٨٢ .

([٤٧]) المرجع نفسه صـ ٨٢

([٤٨]) رقم سجل ١٠٥٥ .

مختلفة منها السداسي والنجمي ومتعددالأضلاع لوحات (١،٨) تزخرفها الفروع الملتفة التي تحصر بداخلها أوراقاً نباتية أشكال (٣ـ٤) لوحة (٨).

٢-من حيث الزخارف النباتية، استخدم في هذه التركيبة نفس العناصر المميزة لزخارف الأخشاب الفاطمية المتأخرة مثل .

أ-الأوراق النباتية التي تحصر بداخلها العنب والصنوبر شكل (٤) ونجدها في العديد من الحشوات لوحات (٨ ، ٩) وهي هنا ورقة خماسية داخل فرع ملتف يوجد في منتصفها هذا الشكل البارز المكون من حبيبات يشبه عنقود العنب أو كوز الصنوبر ، ويتشابه هذا الشكل مع ما وجد في محراب السيدة رقية لوحة (٣) شكل (٥) وباب الصالح طلائع لوحة (٧) ومنبر جامع قوص لوحة (٦) .

ب-عناقيد العنب لوحة (١٠) وهي تنفذ أما منفردة تخرج من فروع شكل (٦) أو تحفر داخل الورقة الخماسية بالشكل الذي رأيناه من قبل ، ونلاحظ هنا تشابه هذه العناقيد مع مثيلتها المنفذة علي محراب السيدة رقية لوحة (٣) وباب الصالح طلائع لوحة (٧) .

ج-قرون الرخا ، وقد وجدت في أكثر من جانب من هذه التركيبة شكل (٤) لوحات (٨ ـ ٩) ، وهي تشبه إلي حد كبير الشكل الموجود في باب الصالح طلائع لوحة (٧) .

د-الورقة الثلاثية ، وهي تظهر دائماً داخل فروع ملتفة أشكال (٣ـ٦ـ٨) ونراها في الحشوات التي تتخذ شكل شبه المنحرف في أسفل وأعلي لوحات (٩ــ١١) وفي الحشوة ذات الشكل النجمي لوحة(١١) ، ولهذا الشكل أمثلته الكثيرة علي الأخشاب الفاطمية في المرحلة الأخيرة مثل جوانب محراب السيدة رقية لوحة (٣) وباب الصالح طلائع لوحة (٧) وفي باطن محراب السيدة نفيسة شكل (٧) .

هـ-الأوراق الخماسية ، ومنها ما يكون بداخلها العنب والصنوبر كما سبق أو ترسم بدون ذلك شكل (٦) لوحات (٨ ـ ٩ــ١٠) وهي تتشابه مع الورقة الخماسية المرسومة علي محراب السيدة رقية لوحة (٣) وباب الصالح طلائع لوحة (٧) ومحراب السيدة نفيسة شكل (٧) .

و-الأرابسك ، ونجد أشكال الفروع الملتفة التي تخرج منها المراوح النخيلية منتشرة شكل (٦ــ٨) لوحات (٨ ـ ٩ــ ١٠) وهي تشبه ما وجد منها علي باب الصالح طلائع لوحة (٧) ومحراب السيدة نفيسة شكل (٧) وجوانب محراب السيدة رقية لوحة (٣)بل أن هناك تشابهاً كبيراً بين أسلوب التنفيذ في التركيبة لوحة (١٠) ومنبر قوص لوحة (٦) وباطن محراب السيدة نفيسة شكل (٧) لوحة (٤)يؤكد الصلة القوية بين هذه القطع جميعاً .

وهناك شكل منها عبارة عن نصفي مروحة نخيلية يلتفان معاً في شكل يشبه الورقة النباتية المثقوبة شكل (٩) ، وقد وجد هذا الشكل علي تركيبة الإمام الحسين باللوحات (٨ـ١١) وهو موجود أيضاً علي محراب السيدة نفيسة لوحة (٤) شكل (٧) وعلي باب الصالح طلائع لوحة (٧) .

ومما يؤيد صناعة هذه التركيبة فى العصر الفاطمى التشابه الشديد بين العناصر الزخرفية وأسلوب الحفر البارز فى الحشوة المربعة لوحة (١٠) شكل (٦) وبين الزخارف فى باطن محراب السيدة نفيسة لوحة (٤) شكل (٧) وبين منبر قوص لوحة (٦) بشكل يكاد يتطابق خاصة مع محراب السيدة نفيسة وهو ما يختلف كثيرا عن أسلوب تنفيذ الزخارف فى تركيبة الإمام الشافعى مثل الترس لوحة (١٦) ، ومن الجدير بالذكر أنه من الطبيعى أن نجد بعض التشابه بين تركيبة الإمام الشافعى والأخشاب الفاطمية المتأخرة ، حيث مرت الأخشاب الأيوبية المبكرة بمرحلة انتقال تأثرت بما سبقها لكنها مالت فيما بعد إلى أشكال الأطباق النجمية التى لم تستخدم فى تركيبة الإمام الحسين .

كذا يتضح لنا من دراسة الزخارف النباتية في هذه التركيبة أنها متشابهة مع زخارف الأخشاب الفاطمية في الفترة الأخيرة منها وهي الفترة التي ينتمي إليها محراب السيدة رقية ومنبر جامع قوص وأخشاب عصر الصالح طلائع ، وهي الفترة التي نقلت فيها رأس الإمام الحسين إلي القاهرة وشيد مشهده فيها.

٣-الكتابات : نتناول كتابات هذه التركيبة من حيث الشكل والمضمون :

أ-من حيث الشكل استخدم في زخارف هذه التركيبة الخطين الكوفي والنسخي، وبالنسبة للخط الكوفي المستخدم هنا فهو من النوع المورق والمنفذ علي أرضية من الفرع النباتية الملتفة التي تحصر بداخلها أوراق العنب وكيزان الصنوبر والمراوح النخيلية لوحات (١٠ــ١١ ـ ١٥) . ويعد هذا الشكل من الخط الكوفي هو الأكثر شيوعاً علي الأخشاب الفاطمية في القرنين الخامس والسادس الهجري /الحادى عشر والثاني عشر الميلادي ([٤٩]) ويتشابه مع ما وجد علي منبر جامع قوص لوحة (٦) كما أن العناصر النباتية التي تمثل أرضية لهذه الكتابة هي نفسها العناصر المستخدمة علي الحشوات الهندسية السابقة ، أما بالنسبة لخط النسخ المستخدم هنا فهو أيضاً من النوع المنفذ علي أرضية نباتية مشابهة لوحات (٩ــ ١٠ــ١١ ـ١٥) ، ومن المحتمل أن يكون هذا النوع من الخط هو السبب في الاعتقاد بنسبة هذه التركيبة إلي العصر الأيوبي . ولكن حين نعود إلي دراسة ظهور هذا الخط نجده علي العديد من التحف الفاطمية ترجع إلي ما قبل القرن السادس ، من ذلك دينار من عصر المستعلي بالله مؤرخ (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م) شكل (١١) لوحة (١٢) نري عليه استخدام الخط النسخي ولكن دون أرضية نباتية ([٥٠]) ، كما تظهر بدايات تحول بعض الحروف الكوفية إلي النسخ في محراب

([٤٩]) د. مايسة محمود دواد : الكتابات العربية على الآثار الإسلامية من القرن الأول حتى آواخر القرن الثانى عشر للهجرة (٧-١٨م) ، القاهرة ١٩٩١م ، صـ ٥٤.

([٥٠]) Baloge, p, Apparition Prematuree de L'ecriture Naskhy sur un Dinar de L' Imam Fatimite Almoustaly – Billah, Bulletin.de L'Institut d,Egypte,Tome, ession 1948-1949, Le Caie,1949

السيدة نفيسة المؤرخ (٥٤١هـ / ١١٤٥م) ([٥١]) ،كذلك يظهر استخدامه علي المنسوجات الفاطمية في نفس الفترة([٥٢])أما بالنسبة للأخشاب فإننا نجد الجمع بين الخطين الكوفي والنسخي في قطعة واحدة من خلال باب كتبية من مسجد الصالح طلائع (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة([٥٣]) لوحة (١٣) شكل (١٢) .

ولم يكن هذا الأمر مقتصراً علي مصر وحدها وإنما وجدت نماذج الجمع بين الخطين في منبر مسجد علاء الدين في قونيه (٥٥٠هـ ـ ١١٥٥م) ([٥٤]) ، كما وجدت الكتابات النسخية في منبر مسجد نور الدين بحماه (٥٥٩هـ / ١١٦٣م) ويمتاز هذا المنبر باستخدام الخط النسخي وحده دون الكوفي([٥٥]) لوحة (١٤) .ونلاحظ أن الخط فى هذا المنبر علي أرضية نباتية تشبه الموجودة في تركيبة الإمام الحسين ، كما وجد الخط النسخي أيضاً علي المنبر الذي أقامه نور الدين للمسجد الأقصى([٥٦])(٥٦٤هـ / ١١٦٨م) وهو المنبر الذي احترق علي يد اليهود ، وإذا تتبعنا هذه القطع الخشبية التي ظهر عليها خط النسخ نجدها جميعاً تقع قبل قيام الدولة الأيوبية .

وتجدر الإشارة هنا إلي أن ظهور الخط في الشام أو الأناضول لا يعني عدم انتقاله إلي مصر في نفس الفترة حيثكان الصناع يرحلون من بلد لآخر ، وليس غريباً أن يتم الاستعانة بصناع من خارج مصر في العصر الفاطمي أو تقليد ما هو مصنوع في الأقاليم الأخرى .

وبالمقارنة بين أسلوب تنفيذ الكتابات في تركيبة الإمام الحسين وتركيبة الإمام الشافعي نجد اختلافاً من حيث المساحات المخصصة لها ، فقد شملت الكتابات في تركيبة الإمام الحسين كافة الإطارات التي تضم الحشوات الصغيرة لوحة (١) وهي تسير في خطين متوازيين أحدهما كوفي والآخر نسخي أما في تركيبة الإمام الشافعي فإنها تشكل إطارا واحدا حول كل جانب من جوانب التركيبة لوحة (٢) مما أدي إلي أن تكون كتابات الإمام الحسين أكثر مساحة من الإمام الشافعي وذلك لاستيعاب آيات كثيرة ذات تفسيرات شيعية كما سنري .

ب-من حيث المضمون : إذا نظرنا إلي مضمون الكتابات في تركيبة الإمام الحسين نجدها أما آيات قرآنية أو كتابات دعائية ، وتضم الآيات القرآنية

([٥١]) د. زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين صـ٢٢٠ .

([٥٢]) د. زكي محمد حسن : فنون الإسلام صـ٣٥٣ – ٣٥٦ .

([٥٣]) رقم سجل - ٦٧٢ ، Pauty,E, Catalogue General Du Musee Arabe Du Caire -Les Bois Sculptes Jusqua'A L'epoque Ayyoubide,P74

([٥٤])د. نعمت محمد أبو بكر : المنابر الخشبية في مصر حتى العصر المملوكي رسالة ماجستير من كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٦٨ صـ١١٠ .

([٥٥])المرجع نفسه صـ١١٥ – ١١٨ .

(٥٦)د. زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، القاهرة ١٩٥٨. شكل (٣٧٠) .

قولـــه تعالـــي : " إنمـــا يريـــد الله ليـــذهب عـــنكم الـــرجس أهـــل البيـــت ويطهـــركم تطهيـراً " ([٥٧]) . ويـؤول الشـيعة هـذه الآيـة علـي أنهـا نزلـت فـي أهـل البيـت مـن نسـل فاطمـة الزهـراء رضـي الله عـنهم ([٥٨])ونـري أيضـاً الآيـة الكريمـة " الله نـور السـموات والأرض مثـل نـوره كمشـكاة فيهـا مصـباح ([٥٩])وهـم يؤلـون هـذه الآيـة أيضـاً بأنهـا تـدل علـي الأسـرة الفاطميـة ([٦٠]) ونلاحـظ هنـا أن هـذه الآيـة لا تـذكر عـادة فـي التحـف التـى تسـتخدم فـى الأضـرحة وهـو مـا يؤكـد أنهـا هنـا بـالمعني الشـيعي . ومـن الآيـات الأخـرى التـي يؤولهـا الشـيعة ([٦١]) قولـه تعـالي : " إن فـي خلـق السـموات والأرض واخـتلاف الليـل والنهـار لآيـات لأولـي الألبـاب " ([٦٢]) ، وقـد وردت هـذهالآيـة علـي التركيبـة أيضـاً ، كـذلك نلاحـظ ورود بعـض الآيـات علـي أخشـاب نهايـة العصـر الفـاطمي وهـي تتكـرر علـي التركيبـة موضـع الدراسـة مثـل قولـه تعـالي : " إن ربكـم الله الـذي خلـق السـموات والأرض فـي سـتة أيـام ثـم أسـتوي علـي العـرش يغشـى الليـل النهـار يطلبـه حثيثـا " ([٦٣]) حيـث وردت هـذه الآيـة علـي محـراب السـيدة رقيـة وكمـا نـري فـإن هـذه الآيـة ليسـت مـن الآيـات المعتـادة فـي النصـوص التـي تـرد فـي الأضـرحة . ونجـد أيضـاً الآيـة الكريمـة : " إنمـا يعمـر مسـاجد الله مـن آمـن بـالله واليـوم الآخـر " ([٦٤])وهـي مـن الآيـات التـي تكتـب دائمـاً عـن بناء المساجد ، وهو ما يشير إلي أن التركيبة صنعت فى فترة قريبة من بناء المشهد .

أمـا الكتابـات الدعائيـة فهـي عبـارات " الملـك لله ـ العـزة لله ـ ومـا تـوفيقي إلا بـالله عليـه توكلـت ـ توكلـت علـي الله ـ التوفيـق ـ التوفيـق بـالله ـ تقتـي بـالله ـ نصـر مـن الله وفـتح قريـب ـ الله أملـي ـ الفلـك لله ـ الغنـي بـالله ـ لا نصـر إلا بـالله ـ المسـلم الله ـ حسـبي الله ـ ومـا بكـم مـن نعمـة فمـن الله " وقـد وردت جميعهـا فـي الإطـارات التـي تحـيط بالحشـوات السداسـية شـكل (١٣) لوحـة (١٥)، وتعـد كلمـة الملـكلله هـى أكثـر هـذه الكلمـات وروداً فـى التركيبـة ، ويـذكر المقريـزي أن هـذه الكلمـة كتبـت علـي أفخـاد الخيـل عنـد فـتح الفـاطميين لرقـادة ([٦٥]) كمـا كتبـت هـذه الكلمـة " وكلمـة العـزة لله " فـي مصـر لأول مـرة فـي جـامع الحـاكم بـأمر الله ([٦٦]) (٤٠٣هـ / ١٠١٢م) ونراهـا

([٥٧]) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

([٥٨]) محمد كامل حسين : التشيع في الشعر صـ٧١ .

([٥٩]) سورة النور آية ٢٥ .

([٦٠]) المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ١ صـ١٩١ .

([٦١]) المرجع نفسه صـ١٩١ .

([٦٢]) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

([٦٣]) سورة الأعراف آية ٥٤ .

([٦٤]) سورة التوبة آية ١٨ .

([٦٥]) المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ١ صـ٦٤ .

([٦٦]) عبد الناصر محمد : المرجع السابق صـ٣٥٠ .

أيضاً علي مصراع كتبية الصالح طلائع شكل (١٢) بنص " الملك لله وحده " لوحة (١٣) . أما باقي العبارات فمنها ما يدعو بالتوفيق أو الثقة مثل " ثقتي بالله " ،وقد وردت عبارة " أثق بالله " علي منبر جامع دير سانت كاترين (٥٠٠هـ / ١٠١٦-١٠١٧م) [٦٧]كما كانت العبارات المشابهة مكتوبة علي فصوص بعض الخواتم الفاطمية بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ([٦٨]) .

أما العبارات ذات المضمون المتعلق بالنصر مثل : " لا نصر إلا بالله ـ نصر من الله وفتح قريب "فهي أيضاً غير معتادة علي الآثار المتعلقة بالأضرحة ، وربما تشير هذه العبارات إلي وجود بعض الحروب والقلاقل خاصة مع ورود عبارة " المسلم الله " وهي عبارة غريبة لم ترد علي أي من الأضرحة أو ما بها من التحف المنقولة ، وربما تشير هذه العبارات إلي فترة الاضطراب في نهاية العصر الفاطمي والتي تعرضت مصر فيها لغزوات الصليبيين وصراع الوزراء وحريق الفسطاط وغير ذلك من الأحداث ([٦٩]) التي أدت إلي ظهور هذه العبارات .وبالمقارنة مع تركيبة الإمام الشافعى لا نجد عليها سوى آيات قرآنية والنص التأسيسى بالاضافة إلى تكرار عبارة الملك لله فقط ([٧٠]) . وتختلف الآيات القرآنية الورادة فى تركيبة الإمام الشافعى فهى كلها من ايات الرحمة والدعاء للأولياء مثل قوله تعالى " الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون "([٧١]) لوحة (١٧) وقوله :- وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ([٧٢]) لوحة (١٦) .

أما آخر وجه للاختلاف بين التركيبتين فهو في وجود نص تسجيلي علي تركيبة الإمام الشافعي يحدد اسم من صنعت له وتاريخ الصناعة واسم الصانع ([٧٣]) وهو ما لا نجده في تركيبة الإمام الحسين مما يثير التساؤل حول السبب في إخفاء الصانع لهذه البيانات ، فإذا كان الصانع واحداً أو من نفس الفترة فلماذا لميذكر اسمه رغم أن ذلك يزيده شرفاً ، ولماذا لم يذكر حتى اسم الإمام الحسين أو تاريخ الصناعة ، المرجح أن فترة الاضطراب التي سبقت الإشارة إليها هي السبب في هذا الخوف لدي الصانع أو من أمر بصناعتها .

وربما جاءت هذه العبارات مع قدوم الفاطميين من المغرب حيث أنها كانت موجودة هناك وربما قدمت أيضاً مع الصناع المغاربة أو الحجاج . راجع د. محمد محمد الكحلاوي : العمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي – عمائر الموحدين الدينية في المغرب – رسالة دكتوراه – كلية الآثار – جامعة القاهرة ١٩٨٦ صـ٤٨٥ حاشية (١)

([٦٧]) Paliouras , A , ST Cathrine's Monastery -Published by ST Cathrine's Monastery 1985,P,10

([٦٨]) نعمت أبو بكر : المرجع السابق صـ٦٣ .

([٦٩]) يمكن الرجوع في ذلك إلي ما ذكره المؤرخون خاصة المقريزي في اتعاظ الحنفا – جـ٣ صـ٢٤٦ وما بعدها .

(٧٠) Wiet,G, Les Inscriptions Du Mausolee De SHAFI'I, Bulletin De L'Institut D'Egypte,Tome 15,Le Caire ,1933

(٧١) يونس ٦٢

(٧٢)الزمر ٧٣

([٧٣]) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد صـ ١٠٨.

وهكذا نجد أن الأسباب التاريخية واعتياد الفاطميين علي صناعة تراكيب لأضرحة آل البيت والتشابه الفني الشديد مع أخشاب العصر الفاطمي في فترتها الأخيرة والنصوص الواردة علي هذه التركيبة ، واختلاف التصميم والشكل وبعض الزخارف مع تركيبة الإمام الشافعي يشير بلا شك إلي تأريخ هذه التحفة بالفترة بعد ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وحتى قدوم صلاح الدين إلي مصر ٥٦٤هـ / ١١٩٨م .